مقتطفات من كتاب
حلم رجل مضحك
فيودور دوستويفسكي



كبسولة خير للبرمجيات
مصطفى علي سيد
(أبو مهاب)
https://cap-khir.com
sedratalmontha@gmail.com



أنا رجلٌ مضحك، وهم ينعتونني الآن بالمجنون، وقد كانَ من شأن هذا النعت أن يكونَ رفعاً من قَدْري لو أنّهم تراجعوا عن اعتباري مضحكاً، كما فعلوا في السابق .لكنني بعد اليوم لن أغضبَ عليهم، فجميعُهم لطفاء بالنسبة لي حتى وهم يهزؤون بي، بل لعلهم يصبحونَ أكثر لطفاً حين يفعلونَ ذلك، ولو لم أكن شديد الحزنِ وأنا أنظر إليهم لضحكت معهم ـ ليسَ على نفسي بالطبع ـ ولكن لكي أُسرّي عنهم، شديد الحزن لأني أراهم يجهلونَ الحقيقة؛ بينما أعرفُها أنا، ما أصعَبَ الأمرَ على من يعرف الحقيقةَ وحده، إنهم لن يفهموا ذلك.

لا، لن يفهموا.

وقد تجلّى هذا في بعض التفاصيل الصغيرة جداً: مثلاً أنني كنت أسيرُ في الطريق فأصطدمُ بالناس، والأمرُ ليسَ بسبب استغراقي في التفكير :فبماذا سأفكر، يومها كنتُ قد توّقفت عن التفكير في أي شيء: لقد استوت الأمور كلها في عينيّ، وما عدتُ أهتمُ لأمرٍ ولا فكّرت في حلِ سؤال واحد؟ ثُمَّ هل كان ثمّة أسئلة شغلتني؟ (لم أكن معنياً بشيء) ولهذا تناثرت الأسئلة مبتعدة.

أقلّبُ الأمور: إنني ما دمتُ إنساناَ، ولستُ صفراَ، وَلم أصبح صِفراَ بعدُ، فهذا يعني أنني أحيا، وبالتالي يُمكنني أن أتألّمِ، وأغضبَ وأشعر بالخزي مما أقترِفُهُ، طيّب! فإن انتحرتُ؛ ما الذي يعنيني بَعد سَاعتين مثلاً من شأن الفتاة، ومن الخزي، ومن كلِ ما هو فوقَ سطح الأرض؟ عندها سأتحوّلُ إلى صِفر، إلى عَدَمٍ مُطلق.



لقد قمتُ بإهانةِ الطفلة البائسة حين قرعتُ الأرضَ بقدمي، وصرختُ بها، ومَا هذهِ الحقارة التي قمتُ بها والخالية من مشاعِر التعاطف الإنساني "بهدفِ البرهان على أنني لم أعد أشعُرُ بالشفقة فحسب، بل لأثبتَ أيضاً أنني أستطيعُ أن أرتكبَ أي حقارة لأنني وبعد ساعتين سأغادرُ هذا العالم"، هل تُصدّقون أن صُراخي كان لهذا السبب؟ أنا الآن واثقٌ تقريباً من ذلك، لقد تصوّرتُ بوضوحٍ تام أن الحياة والعالم الآن إنّما يتعلّقانِ بي، ويمكنني حتى أن أقول: لكأنَ العالمَ قد وجدَ لأجلي وحدي، فيكفي أن أطلقَ النارَ عليّ حتى يختفي العالم ولا يعودُ موجوداً، على الأقل بالنسبةِ لي؛ ولا أقول الآن أن لا شيءَ سيبقى في حقيقة الأمر للجميع من بعدي أنا، وما أن ينطفئُ وَعيي حتى يتلاشى العالَمُ كلّهُ في اللحظةِ نفسها كما يتلاشى شبح، لأن كل هذا ينتمي إلى وعيي أنا وحدي، رُبّما لأن هذا العالم كُلّه، والناسُ كُلّهم ليسوا سوى (أنا) وحدي، أذكُرُ أَنني استعرضّت وقلّبتُ كل هذهِ الأسئلة الجديدة جَالساً إلى طاولتي؛ فأذهب فيها مذاهب شتّى واختَلِقُ غيرها.

وفجأةً وجدتُني أصرُخُ بكل ما فيّ من مشاعر ـ ولكن دون صوت فقد كنت جامداً لا حراكَ فيّ ـ وجدتُني أصرخُ منادياً ذاك الذي يتحكّم بي.

ـ أياً كنتَ؛ إن كنتَ موجوداً، وإن كان من الممكن وجود ما يحدث الآن، ولو على سبيل الانتقام مني بسبب انتحاري الغبي فلا تسمح بحدوث ذلك لأنكَ لن تلقى مني إلا السخرية، فالتعذيب الذي يقعُ عليّ الآن، مهما كان لا يَعْدِلُ شعوري بالاحتقار الذي سأحسّهُ صامتاً ولو لملايين السنين القادمة!



فكّرتُ بخفّة الحلمِ العجيبة: "إذاً هناكَ وراء القبر حياةٌ أخرى!"، لكنَ ميزتي الأساسيّة ظلّت في أعماقي: "إذا كان لا بُدَّ أن (أوجدَ (ثانيةً - فكّرتُ - بإرادةِ أحدٍ ما فإنني لن أكونَ مَغلوباً ومُذلاًّ".

"أنتَ تعلم أنني أخافك، ولهذا أنتَ تحتقرُني"، قلتُ لرفيقي، دون أن أستطيع كبح هذا السؤال المُذل، الذي ينطوي على اعتراف وينغرس في قلبي كإبرةٍ سببها الجبن.

- هل من الممكن أن يحدثَ مثلُ هذا التكرارِ في الكون؟ وهل هو قانون الطبيعة؟ وإن كانت تلك هي الأرضُ، فهل هي أرضٌ كأرضنا تماماً، مثلها تعيسة، وفقيرة، ومثلها غالية ومحبوبة أبد الدهر، وقادرة على استدرار حُبِ أبنائها وحتى أكثرهم جحوداً؟ - قلت ذلك هاتفاً وأنا أرتعشُ جراءَ حُبٍ طاغٍ وشديد تجاه تلك الأرض التي ولدتُ عليها وهجرتُها، وكانت طيف تلك الطفلة البائسة التي أهنتُها يخفقُ أمام عيني.

- سترى كل شيء - أجابَ مُرافقي وكانت كلماتُهُ تشي بحزنٍ ما.

[...]أتعلمونَ؛ سأبوحُ لكم بسر: رُبّما كل ما سبق لم يكن حُلماً! لأن ما حَدَثَ كانَ مهولاً وفظيعاً في حقيقتِهِ، بحيث لا يمكن أن يتراءى في حُلم.

ولنفترض أن حُلمي هذا كان وليدَ قلبي، فهل باستطاعة قلبي منفرداً أن يلدَ تلك الحقيقة الهائلة، التي تحققت بعد ذلك؟ كيفَ كانَ بإمكاني أنا وحدي أن أتخيّل كل ذلك، أو أن أَحْلُمَ بهِ في فؤادي؟ وهل باستطاعةِ قلبي الصغير، وَعَقْلي الضحل المُتَقلّب أن يتساميا إلى تلك السويّةِ من معرفةِ الحقيقة؟ احكموا على ذلك بأنفسكم: أنا حتى هذهِ اللحظة كتمتُ الكثير عنكم، لكنني الآن سأقول كل الحقيقة.

الأمرُ وما فيه أنني... قد أفسدتُ الجميع!

أنا لا أريدُ ولا أستطيعُ أن أصدّق أن الشر حالة طبيعيّة للإنسان، غير أنّهم جميعاً إنّما يسخرون مني بسبب اعتقادي هذا، ولكن كيفَ بإمكاني ألا أؤمن بذلك: لقد رأيتُ الحقيقة ـ ولم أختلق الأمرَ ذهنيّاً، لقد رأيتُها.. رأيتُها، وامتلأت روحي "بأُنموذجها الحي" إلى الأبد .شاهدتُها في تجلّيها المطلق، ولم أصدّق أنها لن تتحقق عند البشر. وهكذا، كيفَ لي ألا أضل؟ وأنحرف، بالطبع سيحدُثُ ذلك أكثر من مَرّة، وقد أتحدّثُ بكلامٍ غريب، ولكن ليس لوقتٍ طويل: فالأنموذج الحي الذي رأيته سيبقى معي دائماً؛ يُصحح لي ويوجّهني .ها أنذا شجاعٌ، وفي نضارة الشباب وسأمضي وأمشي ولو ألف سنة، هل تعلمون؛ لقد أردتُ في البدايةِ حتى إخفاء خبرِ إفسادي لهم جميعاً، وقد كانت تلك غلطة ـ أوّل غلطةٍ لي!



وهل حياتنا أكثر من حلم؟ وسأقول أكثر من ذلك: فليكن أن كل ذلك لن يتحقق وأن الجنَّة لن توجد أبداً (وأنا أفهم تماماً ذلك) ـ لكنني ورغم ذلك سأنطلقُ مُبشِّراً، فما أسهل الأمر رغم كل شيء: فمن الممكنِ في يومٍ واحد، بل (في ساعةٍ واحدة) ـ أن يُعَادَ بناء كل شيء وبالسرعة القصوى؛ وإنما المهم ـ أن تحبَّ الآخرين كما تحب نفسك، وهذا هو الأمرُ الرئيس(ه(، الذي لا يعدِلُهُ أمر: فمتى حققتموهُ بنيتُم الجنَّة. وبالمناسبة هذهِ حقيقةٌ قديمة قرأها البشَرُ ورددوها بلايين المَرّات. فكيف إذاً يمكن التعايشُ مع الفكرة التي تقول: "إن وعي الحياة فوق الحياة نفسها، ومعرفة قوانين السعادة ـ هي أعلى من السعادة" ـ إن ما يجبُ النضال ضده هي هذهِ الفكرة بالتحديد! وسأفعل ذلك. ما أن يَرغبَ الجميعُ في شيء حتى يتحقق من لحظتِها.

أما تلك الطفلة فسأجدها ...سأمضي... وأمضي وأمضي!